



فصل

في الحوادث التي أدت الى مجازر سنة ١٨٦٠

قلنا في الفصل السابق ان مبدأ الحاكمين نقرر نهائياً بعد حوادث سنة ١٨٤٥ . بلا كانت بلاد الميمنة خاصة بهم لا يسكنها الدروز صار قائمقام النصارى لا سيادة له الا على ابناء جنسه ولكن قائمقام الدروز كان يحكم القرى الاخرى من جبل لبنان وفيها الدروز والنصارى مختلطين من عهد نشأة الطائفة الدرزية . ولذلك عظم شأن الدروز وتمكنت سيادتهم وصار المعاونون الذين تعينوا من النصارى لمساعدة حكام الدروز كلاً شيء يبصرون ولا يأمرن ويرون استبداد الدروز في بني طائفتهم ولا يقدرن على اصلاح الامور . واشتدت جراءة الدروز إلى حد انهم صاروا ينازعون النصارى في كل املاكهم و يضع كل واحد منهم يده على املاك جاره وجعل بعض مشايخهم يغزون القرى التي يسكنها النصارى حيناً بعد حين فيسوقون الانعام والخيرات بين يديهم و يسومون الرجال عذاباً مرّاً ولا حرج عليهم في ما يفعلون ورأى الاتراك ان كل حيلهم لم تنفع وان الجبل ظل لا هله ولم يملكوه فعادوا إلى نعمتهم الاولى واخناروا الامير بشير ابي المم آل لندس الدسائس لانه كان مارونياً فدار هذا الامير واعوانه يكتبون

العرائض في حق القائمقام النصراني ويعرفون مساعيد مع انه كان
حكيمًا عادلاً ويعملون على نكايته ويتعرضون لعائلته وجباة الاموال في
الطرق ويختطفون الحاصلات والماشية من اهل القرى فشكاهم الحاكم
إلى الوالي وطلب اليه المدد العسكري مرارًا وتكرارًا فلم يلق طلبه
قبولاً ولم يرض الاترك بمنع الاعتداء وقع الثورة لان العيش لا يلد
لم ولبنان هادي مستريح من عناء الحروب الا اذا كان حكامه من
الاتراك واهله افقر الناس واذلم بين يدي هؤلاء الحكام

وتماذى الدروز في اظهار القوة والافتخار بالنصر ولم تردهم الحكومة
عن المسف والجور واذلال اعدائهم وكان اشهرهم في هذه الامور
سعيد بك جنلاط فان هذا العميد تطرف وافرط في ظلم النصارى
الذين كانوا في قبضته وصير نفسه اغني اهل الشام بما كان ينهبه يوماً
بعد يوم من املاكهم حتى انه استخدم اناساً لحفر الاخنام كانوا لا
يبرحون بيته ومهنتهم الوحيدة حفر اخنام للذين يريد سعيد بك
اغصاب اموالهم واطيانهم وكتابة الاوراق المزورة ببيع تلك الاطيان
اليه وانتقالها إلى يده وتسجيلها في محاكم الجبل ولو ان احد هؤلاء
المظلومين عارضه في امرٍ لما لقي غير الذل والعذاب الكثير فقد كان
هدا الطاغية يرشي والى بيروت فيعرض التركي عن سماع الدين
يشكون اليه فعاله واذا عاد المشيكي إلى بيته وجد رجال سعيد بك
بانتظاره فيوسعونه ضرباً مبرحاً وقد يعدونه الحياة ولا يجسر اقاربه
على المطالبة بدمه وقد زاد في قحة هذا الظالم تقرب قنصل الانكليز
منه وموادته وكان الانكليز يرون ان الموارنة اعوان فرنسا يعاونونها

على مدّ نفوذها وبلوغ مرامها فأرأوا ان يستميلوا الدرّوز اليهم و يجعلوهم
جزباً لهم وكان سعيد بك جنبلاط اعلاهم مقاماً واكثرهم وجاهةً وهم
اشهر الناس في اتباع رأي اكابرهم فأظهروا له ما تقدم من الملاطفة
حتى صبروه واهل طائفته من حزبهم وكانوا اذا سمعوا عنه امرأ
يعرضون و يؤثرون بقاء طائفة الدرّوز على ولائهم على اعانة ضعيف
من الناس ظلمه سعيد بك او احد اعوانه . ولهذا استخفّ الدرّوز
بالنصارى وعمّ الاعتقاد بينهم ان الانكاز - حلفاء الدرّوز واقاربهم
وثبت هذا الاعتقاد عندهم من تصرف بطريك الموارنة وقسمهم
لانهم كانوا يعتبرون الانكاز هرطقة وكفاراً مثل الدرّوز ويحرمون
القرب منهم او الاختلاط بهم فظنّ الدرّوز ان الانكاز اقرب اليهم
منهم إلى الموارنة وزادت جراتهم واستخفافهم بنصارى لبنان وهكذا
عادت الاحقاد وكان السبب فيها هذه المرّة ايضاً دسائس الاتراك
وبساطة الموارنة وحب الدرّوز للحرب والغنيمة

ومع كل هذا الضغط وهذه الاسباب لم يتأخر النصارى في جبل
لبنان وضواحيه عن النمو والارتقاء وكانت اشهر مدائن النصارى في
لبنان دير القمر وزحلة . وفي جنوبيه من بلاد الشام حاصبياً وراشياً
وسنأتي على طرفٍ من تاريخ هذه المدائن عند ذكر المذابح التي
حصلت في كلٍ منها ولكن يكفي ان يقال هنا ان دير القمر كانت في
ما سبق من الزمان من املاك الدرّوز والذين فيها من النصارى اجراء
لمشابح بيت معن ومن عقبهم من اهل هذه الطائفة و آخر الذين تولوا
امورها بيت ابي نكد من مشاهير الدرّوز فاستقلت منهم وطردهم منها

كما تقدم واثري النصارى فيها حتى لم تعد ترى ذكراً للدروز فيها إلا إذا كانوا من الخطابين والخدامين وكان النصارى ينتخرون بقوتهم وثروتهم ويثيرون بذلك طمع الدروز وحقدهم في كل حين . وكان احد آل ابي نكد وهو الشيخ بشير ابي نكد من اعظم اعيان الدروز فأراد يوماً ان يبنى له قصرًا في ضواحي دير القهر ومانعه النصارى في ذلك ممانعة كبرى حتى انهم ابلغوه انهم يخربون له ما يبنيه يوماً بعد يوم اذا هو اراد القرب من بلادتهم بعد ان طردت طائفته منها فاضطرَّ إلى الرجوع عن عزمه ولكنه اضمم الشر للنصارى وقال عبارة تروى عنه إلى هذا اليوم كانت نبوءة بمستقبل الحوادث وهي « اني سوف ابني اساس بيتي برؤوس هؤلاء النصارى وعظامهم » وقد أتم ذلك بالفعل من بعد مجازر سنة ١٨٦٠

واما زحلة فتمت في تلك المدة نموًا هائلًا اوجب قلق الدروز وحسابهم لانها كانت امنع مراكز النصارى لا يدخلها غيرهم وصار عدد سكانها ١٢ الف نسمة لا يقل عدد المحاربين منهم عن ثلاثة آلاف بطل واكثرهم من طائفة الروم الكاثوليك . واتسعت تجارة اهل زحلة وامتد نفوذهم الى حد انهم صيروا البقاع في قبضتهم ومنعوا عنه تعدي الدروز وغزوات مشايخهم فاشتد الغيظ بالدروز واشتد الميل فيهم إلى الانتقام . وكثرت المخابرة بين زحلة ودير القهر في شأن الاتحاد على الدروز وحماية النصارى حين اللزوم فحفظ الدروز كل هذا وزاد ميلهم إلى الضرب والحرب
واما حاصبيا فكان عدد النصارى فيها لا يقل عن ٦ آلاف

نسمة أكثرهم من الروم الارثوذكس وبينهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من الدروز . هؤلاء أيضاً اشتدّ العداء بينهم لما تقدم من امور الحرب والخيانة وكان حكام هذه المدينة من آل شهاب الذين حافظوا على الاسلام فراوا من الدروز ميلاً إلى الاستقلال عن سلطتهم وتعرضاً كثيراً لأوامرهم وصاروا يستعينون بالنصارى عليهم وبدأ الفريقان يستعدان لاعادة الكرّ والفرّ . ومثل هذا يقال في راشيا وما يليها

هذا بعض الشيء عن المدن التي حصلت فيها المجازر غير دمشق الشام وسنذكر تاريخها بالاختصار . واما بقية الاسباب التي حركت الناس على العود إلى القتال فأشهرها دسائس الحكومة التركية وقد اسهبنا في وصفها في الفصول الماضية وكان الدروز قد طمعوها في الحكومة وجأهروا بعصيان اوامرها لانهم راوا انها تعينهم على النصارى وقت الحرب وتنفق معهم سرّاً وتزلف لرجالهم حتى يقوموا على جيرانهم فانتزعت كل مهابة لها من قلوبهم وصار مشايخهم المكلفون بجمع الاموال الاميرية يجمعونها ويكافونها واكابرهم لا يدفعون المال المطلوب منهم إلى القائمقام وكما طالبهم الوالي بالمال حاولوه وماطلوه حتى لم يعد له سلطة عليهم . ولما انتشبت الحرب بين روسيا والدولة التركية نظام الدروز على عادتهم بحب الانتصار للمسلمين وعرض مشايخهم على الدولة ان تنظم جيشاً من ابطالهم لمحاربة الروس ففرحت الحكومة التركية بهذا الامر وارسلت لهم مائة وخمسين الف ليرا عثمانية لتنفق على هذا الجيش فأخذ المشايخ المال وجمعوا الرجال ولكنهم ظالوا في مواضعهم لا يأتون غير الكلام حتى انتهت الحرب وغنم المشايخ

كل هذا القدر الطائل ولطالما سألتهم الحكومة بعدئذٍ تقديم الحساب ورد الذي لم ينفق من هذا المبلغ فلا قدموا حساباً ولا ردوا جواباً وزادت قحتهم وجرأتهم وزاد ميلهم إلى الاستبداد واغتنام الغنائم في الحرب حتى كثرت جنایاتهم وزاد تعديهم عن كل حد وقتل اشقياءهم سبعمائة نفس من النصارى بلا ذنب ولا اثم في عشر سنين ولم تطالب الحكومة بدم هؤلاء القتلى مع ان البلاد لم تكن يوماً في حالة الحرب وهذا هو عدل الحكومة التركية فانها اغضت عن كل قبائح السرور ومنكراتهم حتى لا تحرم مساعدتهم حين اللزوم وتبقيهم آلة في يدها يذبحون رعاياها الآمنين في ظلها كما رأت منهم ميلاً إلى التقدم والارتقاء

وكانت نتيجة حرب القرم شوماً وشرّاً على بلاد الشام واهلها ذلك ان الاتراك انفقوا من عود بلادهم اليهم على يد الافرنج وخافوا ان يعرف الناس ضعفهم واحسان اوربا اليهم فعملوا يظلمون ويحجرون ويطشون بكل من عرفوا عنه الميل إلى الافرنج حتى لا يمتد نفوذهم في بلاد الشام ولا تضع الديار من قبضتهم . وكان قناصل فرانساً اسوء الحظ يكثرزون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية في كل امرٍ حتى ان قنصلهم في بيروت كان يجتم على المسلمين بالوقوف له كما يقفون للوالي عند مرور عربته بهم فاذا لم يقفوا له نزل من العربة وجعل يجلد هم بسوطه جلدًا ويشتم اعز الامور عندهم ويكثر من احتقارهم . وكان الموارنة اعواناً لقناصل الفرنسيين يعاونونهم

على مدّة نفوذهم ومجاهرون بالانتماء إلى الدولة الفرنسية حتى أنهم كانوا يملأون الجبل زينة كما زاروا أحد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون له قضاياهم ويحكمونه في أمورهم بدل عمال السلطان وصار الموسيوده لسبس قنصل فرنسا وقتئذٍ في بيروت يستدعي أكابر المسلمين والدروز والنصارى إلى بيته فيأمر فيهم وينهي ويحكم في قضاياهم على ما يريد ويهوى ويظهر للناس بكل واسطة أنه مراقب على حكومة السلطان وان قوة الدولة صارت كلها إلى قبضته واطلما القى اناساً في السجن وافرج عن اناس ونقل الارزاق من رجل إلى خصمه وحمي اصغر الخادمين في بيته من الحكم ولو انه ارتكب اعظم الجرائم

واتى اموراً مثل هذه هيجت مخاوف الاتراك والمسلمين عموماً اذ ظنّ الناس ان البلاد صارت إلى قبضة الافرنج واضطرب الاتراك من جرّاء فعاله هذه إلى الاهتمام أكثر من ذي قبل في تدبير المكائد ودس الدسائس وعمل الطرق اللازمة لخراب الجبل واعادة اموره وامور الشام كلها إلى ايديهم

وتشكلت لجان من المسلمين في بيروت وصيدا ودمشق وحلب وأكثر مدائن الشام كان الناس فيها يشكون من ضياع السلطة من يد الدولة الاسلامية وضيورتها إلى يد الافرنج حتى أنهم عزموا على اعادة مجد الاسلام وعزّه مهما كلفهم ذلك وعولوا على قلب الحكومة التركية اذا كانت هي السبب في وصول الاسلام إلى تلك الدرجة المنحطة

وظلَّ أعضاء هذه الجمعيات يحرِّضون المسلمين على القيام
واكليروس الموارنة وقناصل فرانسوا يظهرُون ميالهم إلى اذلال المسابن
والدروز والاستبداد بالامور حتى سرى روح التعصب الشديد في كل
البلاد وجعل الناس يتأهبون في كل مكان للتخاص من سيطرة الافرنج
وانفة الموارنة و يعدون النفس بذبح النصارى عن بكرة ابيهم والاستئثار
باملاك البلاد بعد انقراضهم

وحدث لسوء الحظ ان قائمقام النصارى في جبل لبنان مات في
سنة ١٨٥٧ فأسرع الاتراك إلى تعيين جاسوسهم وآلتهم العمياء
مكانه وهو الامير بشير ابي الملع الذي سبق ذكره وكان هذا الامير
من اول المحرِّكين على قلاقل سنة ١٨٦٠ عملاً بالاوامر السرية التي
كانت ترد اليه من الاتراك ولا ينقه معناها

ومات بطريك الموارنة ايضاً في تلك المدة فعقبه آخر لم
يعرف آخرة التهور مثل الذي سبقه فأعاد الكرة على الدروز
وشدد على اعوانه بمقاومتهم ومضادتهم واهاج في صدر قومه حب
الحرب واستئصال شافة الدروز لانهم كانوا اعداء دينهم واضطهد
كل نصراني من غير طائفته حتى انه ساعد قومه على اغتصاب كيناس
الارثوذكس وتدمير مدارس البروتستانت ولما علم ان البعض يلجأون
إلى قناصل انكرا من ظلمه وفي مقدمتهم بعض المشايخ من بيت الخازن
شدد الوطأة عليهم واصر بقتل واحدٍ من هذه العائلة الشهيرة مع
ذويه ونهب امواله

وعمَّ الاعداء في سنة ١٨٥٨ و ١٨٥٩ بمساعي القائمقام الجديد

ودسائس الاتراك وجهل البطريرك وكان الذين ينفعون من تداخل انكلترا قد فقدوا ثقتهم برجالها لان القنصل في بيروت لم يمهّد سعيه بك جن بلاط عن قبائحه ولان اللورد ستراتفورد ده رد كلف الذي كان سفيراً لانكلترا في الاستانة ويحب خير المسيحيين في بلاد الشام توفي في تلك الاثناء وخافه سفير ضعيف الرأي ميال إلى عدم التداخل فلم يساعد الذين ظلموا من بيت الخازن بسبب ثقتهم من دولته مع انهم اكثروا من الشكوى اليه ولا سار على خطة سلفه في الدفاع عن المظلومين

وعلى ذلك وقعت بلاد الشام مرةً أخرى في الفوضى وحاول عقلاء المسيحيين جهدهم ان يحركوا خورشيد باشا والي بيروت على ردع الذين كانوا يعيشون في الارض فساداً فما لقوا منه غير الاعراض والاصرار على الاضرار بالجلب واهله وبدأوا يستعدون للقتال وقلوبهم يحدتهم انهم كانوا على مقربة من الاهوال

وكان والي الشام في تلك الايام واسمه احمد باشا من اشد الاتراك كرهاً للعرب والمسيحيين واكثرهم ميالاً إلى ذبح الذين على غير رأيه وهو الذي اعطته الدولة التركية الحكم المطاقي في ولايته فجعلته مشيراً للعساكر الشاهانية ووالياً مستبداً حتى يمكن له ان يقرض النصارى عن آخرهم

وقد كانت معظم الحوادث التي حدثت في سنة ١٨٦٠ بامر هذا الطاغية الظالم واخصها مذابح حاصبيا وراشيا والبقاع ودمشق الشام وهو الذي كانت الاوامر السريّة من الباب العالي بيده يوم

١٣٢ الحوادث التي أدت إلى مجازر سنة ١٨٦٠

جاءت لجنة التحقيق بعد المذابح فامر فؤاد باشا باعدامه قبل ان يتمكن
من ابراز تلك الاوامر . وكان خورشيد باشا والي بيروت
مثله في الرداءة وحب الانتقام من الابرياء
وسوف نشرح فعلهما في الفصل
القادم